﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تقرير هذه الآية لمضمون سابقتها، بإعلان دحر الكفّار، وحشرهم إلى النّار

لمَّا قرَّرت الآية السَّابقة أنَّ الَّذين كفروا سيُغلَبون، ويُحشرون إلى جهنَّم، وكان المقصودُ بالحديث: هم اليهود الَّذين كانوا يرون أنفسهم أكثرَ عددًا، وأقوى عُدَّة، وأشدَّ شكيمة في الحرب؛ ضرب الله لهم مثلًا على صحَّة الكلام السَّابق: بنصره المسلمين المُستضعَفين القليلي العدد والعُدَّة في غزوة بدرٍ على فئة الكفر الطَّاغية الباغية الَّتي كانت أكثر منهم عددًا، وأقوى شوكة، وأنزل الله نَصْرَهُ المبين، وأيَّد عباده المخلصين، وهكذا تكون نتائج الحروب حين يعتصم المسلمون بحبل الله تعالى، وتكون المعركة لرفع راية الحقِّ وإحقاق كلمة التَّوحيد دون أن تشوبها أغراضٌ دنيويَّة، من هنا قال جلَّ شأنه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾، أي: إنَّ هذه الآية دليلٌ على صحَّة مضمون انهزام الَّذين كفروا وحشرهم في نار جهنَّم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِئَةٌ﴾: الفئة من النَّاس: الجماعة الَّتي يُفاءُ ويُرجَعُ إليها في وقت الشِّدَّة، قال الرَّاغب: "الفئة: الجماعةُ المتظاهِرةُ الَّتي يَرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضد"[2].

2) ﴿يُؤَيِّدُ﴾: أصل الفعل: آيَدْتُهُ مؤايدةً، وأيَّدتُهُ تأييدًا، بمعنى: قوَّيْتُهُ، والأيْدُ: القُوَّة الشَّديدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: 17]، أي: الَّذي خَصَصْناه بالقوَّة[3].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/155.
(2) الراغب، المفردات: (فيأ).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أيد)

3) ﴿لَعِبۡرَةً﴾: أصل العِبرة مِن: عِبْر الوادي، وهو شاطئه وناحيته، ومِن: عَبَرَ الوادي والنَّهر، أي: قَطَعَه مِن عِبْره إلى عِبْره الثَّاني[1].

أي: نفذَ مِن أحد الجانبين إلى الآخر، والمرادُ بالعِبرة في هذا السِّياق: الاتِّعاظُ الَّذي يَعْبُرُ به العاقلُ المُتدبِّرُ في المسألة من منزلة الجهل إلى منزلة العلم تشبيهًا للمعقول بالمحسوس.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الفئة المؤمنة منصورة على الكافرة، بالله الأحد، ولا يُغني مِنه عُدَّة ولا عدد

هذه الآية الكريمة خطابٌ عامٌّ للَّذين كفروا، ويدخلُ في المخاطبين اليهودُ دخولًا أوَّليًّا؛ نظرًا لوجودهم في المدينة المنوَّرة، وتربُّصهم السُّوء بالنَّبيِّ ﷺ وأصحابه، وسببُ توجيه الخطاب لليهود أنَّهم كانوا يظنُّون أنفسهم في مَنَعَةٍ، وكانوا يعتدُّون بقُوَّتهم وأموالهم وأولادهم، فذكر الله تعالى لهم في هذه الآية أنَّه: قد كان لكم آيةٌ جليَّةٌ وعبرةٌ ظاهرةٌ وبرهانٌ ساطعٌ على الحقِّ الَّذي تحمله رسالةُ الإسلام، وعلى صدق نبوَّة محمَّد ﷺ وانظروا وتأمَّلوا بعين العقل في الحادثة الَّتي وقعت أمام أعيُنكم، حادثةِ بدرٍ: حيث التقى جيشُ المسلمين الفتيِّ الَّذي لا يتجاوز عدد أفراده ثلاثمئة وبضعة عشر مسلمًا، مع فريق الكفر المُدجَّج الَّذي كان عددهم تسعمئة وخمسين مقاتلًا، وكانوا ذوي عُدَّة وشوكة، ومع ذلك فإنَّ الله تبارك وتعالى نَصَرَ فئة المؤمنين الَّتي كانت تقاتل في سبيل الله، وأذلَّ وأخزى فئة الكفر الَّتي كانت تقاتل في سبيل الشَّيطان.

وممَّا أضعف اللهُ ﷻ به فئةَ الكافرين أنَّه سبحانه كثَّر عدد المسلمين في أعينهم، حيث كان المشركون يَرَوْنَ المسلمين مِثْلَيْهم رَأيَ العين، أي: إنَّهم كانوا يَرَوْنهم يربون على ألف وتسعمئة مُقاتِل، فكان ذلك سببًا في الْفَتِّ في أفئدتهم وإلقاء الهلع في قلوبهم، فجَبُنُوا وفشلوا، وولَّوا الأدبار، وانقلبوا صاغرين مغلوبين.

(1) الزبيدي، تاج العروس: (عبر).

واعلموا أنَّ الله سبحانه يُقوِّي ويُؤيِّد بنصره من يشاء من عباده على وَفق حكمته ومشيئته، والعاقلُ الحصيفُ هو الَّذي بمثل هذه الأحداث يتَّعظ ويعتبر، ويرعوي وينزجر.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

توكيد الجملة للاهتمام بمضمون الخبر:

ابتداء الآية الكريمة بحرف التَّحقيق ﴿قَدْ﴾ يشير إلى قَسَم محذوف، وتقدير الكلام: وعزَّتي وجلالي قد كان لكم - أيُّها الكافرون المعادون لرسالة الإسلام - آيةٌ عظمى وحُجَّةٌ وُضِّحى ودرسٌ بليغ في انتصار أهل الإيمان على قلَّتهم وضعفهم على أهل الكفر في غزوة بدر.

حيثما التقى إيمانٌ صادقٌ وكُفرٌ بواحٌ؛ فالنَّصرُ للإيمان الصّراح

تقديمُ المُتَعَلَّق ﴿لَكُمْ﴾ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾، قُدِّمَ المُتعلَّق ﴿لَكُمْ﴾ على اسم كان ﴿ءَايَةٌ﴾؛ إشارة إلى أنَّ هذه العلامة وهذا البرهان مسوقٌ خصِّيصًا للكافرين؛ ليعتبروا، وينزجروا، ويَرْعَوا عن كفرهم، ويعتنقوا عقيدة التَّوحيد الصَّحيحة السَّليمة، وفي الوقت نفسه: هذا التَّقديم مُسوِّغٌ لتذكير الفعل ﴿كَانَ﴾؛ لأنَّه فاصل بين ﴿كَانَ﴾ واسمها، وبعض النُّحاة يذهب إلى أنَّ تذكير الفعل مذهبٌ في التَّعبير معهود مع التَّأنيث المجازي.

يُحبُّ الله لعباده الإيمان، ولا يرضى لهم الكفران

دَلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿ءَايَةٌ﴾:

دَلالتُها التَّعظيم، أي: تعظيمُ هذه الآيةِ الَّتي ساقَ بيانُ اللهِ الآية كُلَّها لأجلها؛ فهي علامةٌ بيِّنةُ الوُضُوح

ما يسوقه الله مثلا، يؤدّي مقصده بجدارة

دلالة التَّعبير بالفئة في السّياق:

قال جلَّ شأنه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾: الفئةُ: هي الطَّائفة والمجموعة من النَّاس، سُمِّيَت فئة؛ لأنَّ عناصر هذه

المجموعة يفيءُ بعضهم إلى بعض، وينحاز بعضهم إلى بعض مُتناصرين متآزرين، وليس شيءٌ من هذه المعاني في الألفاظ الَّتي تقاربها في المعنى، مثل: الجماعة أو الفريق أو الطَّائفة أو الفوج، من هنا اختير لفظ (الفئة)؛ لبيان أنَّ كلَّ فئة من الفريقين كانت تضمُّ أفرادًا ينحاز، ويأوي بعضهم إلى بعض رغبة في النَّصر والظَّفر.

لفظ (الفئة) أنسبُ بمقام الحرب، وأليقُ بسياق القتال

والاستقراء القرآنيُّ يُؤيِّد هذا المذهب من الفهم حيث نجد أنَّ لفظ (الفئة) كثُرَ استعماله في القرآن الكريم في مشاهد القتال وأحداث الحروب.

قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: 249].

وقال جلَّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: 45].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف: 43].

دلالة المضارع في الفعل ﴿تُقَٰتِلُ﴾:

أهل الإيمان عن نصرة الحقِّ لا يستنكفون، وهم في مواقفهم ثابتون

المضارع في قوله تعالى ﴿تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إمَّا لحكاية الحال، أي: استحضار الحالة الغريبة العجيبة لهذه الفئة المؤمنة أو للدِّلالة على استمرار قتالها وتجدُّده في سبيل الله تعالى، وهذا دليلٌ على شرافتها وثباتها على الحقِّ، وفي ذلك ثناءٌ عظيم على الفئة وأفرادها.

بلاغة الاحتباك في وصف الفئتين:

يُميِّزُ المؤمنين القتالُ في سبيل الله، ويَسِمُ أهلَ الباطلِ كفرُهم بجلال الله

ذَكَرَ اللهُ تعالى مِن صفات الفئة المؤمنة: أنَّها تُقاتلُ في سبيل الله، وطوى ذِكْرَ صفة (مؤمنة) الَّذي دلَّ عليه ما يقابله، وهو قوله في المجموعة الثَّانية: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾.

وذكر في جهة الفئة الكافرة فقط صفة الكفر: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾،

ولم يذكر أنَّها تقاتل في سبيل الشَّيطان أو سبيل الطَّاغوت المصرَّح به في سورة النِّساء، وهو المعنى الَّذي يدلُّ عليه وصف الفئة المؤمنة بأنَّها ﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ويكون تقدير الكلام: قد كان لكم آيةٌ في فئتين التقتا: فئة أولى مؤمنة تقاتلُ في سبيل الله، وفئة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطَّاغوت، وهذا الحذف التَّقابلي يُطلِق عليه البلاغيُّون مصطلح الاحتباك، أي: أن يُحذَفَ من الطَّرف الأوَّل من الكلام ما يدلُّ عليه في الطَّرف الثَّاني، وأن يُحذف من الثَّاني ما يُذكَرُ في الطَّرف الأوَّل.

ولعلَّ من أسرار الاحتباك في هذه الآية الكريمة التَّنبيهَ إلى أنَّ أعلى مراتب الفئة المؤمنة أنَّها تقاتل في سبيل الله إشعارًا بأنَّ القتالَ في سبيل الله منحصرٌ في المؤمنين، فلا حاجة لذكرهم بل يُعدُّ ذِكرُهم إطنابًا، وأنَّ الفريق الثَّاني أذمُّ صفة وأشنعُ نعتٍ يُعرَفُ به أنَّه فريقٌ كافرٌ بالله تعالى، وكفى بهذا ذمًّا لهم وتشنيعًا لموقفهم[1].

نوع الرُّؤية ودلالتها في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم﴾:

تكثيرُ عدد المسلمين في أعين المشركين جندٌ من جنود الله تعالى

لله جنود السَّموات والأرض، ومن جنوده في غزوة بدر أنَّه سبحانه كثَّرَ عدد المسلمين في أعين المشركين، فأصابهم الهلع، وتسلَّط عليهم الفزع، فانقلبوا مهزومين مغلوبين، ومعنى ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾: أنَّ المشركين رأوا المسلمين مِثْلَيْ عدد المشركين، والرُّؤية في هذا السِّياق بصريَّة، والدَّليل على ذلك قوله تعالى: ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾، أي: رأيَ المُعاينة والمُشاهدة، وليس ظنًّا وتخمينًا، كما ذهب إلى ذلك بعض أهل التَّفسير.

توفيق بين ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: 44] وبين: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾:

تقليلُ عدد المقاتلين وتكثيرُهم، من جنود القويِّ المتعال

قد يقول قائل: ذَكَرَ سبحانه وتعالى في هذه الآية أنَّه كثَّرَ عدد المسلمين في أعين المشركين في قوله سبحانه: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾، وذكر في سورة الأنفال أنَّه قلَّل عدد كلِّ فريق في أعين الفريق الثَّاني: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ

(1) القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي: 6/43.

أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: 44]، فأيُّهُما وقع؟ وهل ثمَّة تناقضٌ بين الآيتين؟

الجواب: إنَّ الله تبارك وتعالى في سورة الأنفال قلَّلَ عددَ كلٍّ فريق في أعين الآخر؛ ليُقدِمَ الفريقان على المواجهة والقتال، وكان ذلك قُبَيل بَدْء المعركة، وجملة ﴿إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ تشير إلى هذا المعنى، أمَّا رُؤية المشركين بأنَّ عدد المسلمين هو ضِعْفُ عدد المشركين؛ فقد كان أثناء المعركة وحين التحام الصَّفَّين، فكان ذلك سببًا لخَوَرِهم وانهزامهم النَّفسي وانقلابهم على أعقابهم مدحورين.

وفي ذلك قال أبو حيَّان الغرناطي: "ويحتملُ أن يكون الضَّميرُ المجرور عائدًا على الفئة الكافرة، أي: مثلي الفئة الكافرة، وهم أنفسُهم، فيكون الله تعالى قد أرى المشركين المؤمنين أضعافَ أنفس المؤمنين، أو أضعافَ الكافرين على قلَّة المؤمنين ليهابوهم ويجبُنوا عنهم.

وكانت تلك الرُّؤيةُ مَدَدًا من الله للمؤمنين، كما أمدَّهم تعالى بالملائكة، فإنْ كانت هذه وآيةُ الأنفال في قصَّة واحدة؛ فالجمعُ بين هذا التَّكثير وذاك التَّقليل باعتبار حالين: قُلِّلوا أوَّلًا في أعين الكفَّار حتى يجترئُوا على مُلاقاة المؤمنين، وكُثِّروا حالة المُلاقاة حتَّى قُهِروا، وغُلِبوا، كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصَّافات: 24]، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرَّحمن: 39]"[1].

جِناسُ الاشْتقاقِ بين ﴿يَرَوْنَهُم﴾ و﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾:

مـا أراه الـلـه لعباده، معجزة تبهر العقول

يُقالُ: رأيتُ الشَّيءَ رَأيًا ورُؤيةً ورُؤيا، ثلاثةُ مصادر، إلَّا أنَّ الرُّؤيا أكثرُ ما تُستعمَلُ في المنام، و﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ مَصدَرٌ مُبيِّنٌ لنوعِ الرُّؤية؛ إذْ فِعْلُ (رَأى) يَحْتَملُ البَصَرَ والقَلْب، وإضافتُه إلى العَيْن دليلٌ على

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/217 - 218.

أنَّه يُستعمَلُ مَصْدرًا لرَأى القَلبيَّة؛ إذِ الرَّأيُ اسْمٌ للعَقْل، وتُشارِكُها فيها رَأى البَصَريَّة، بخلافِ الرُّؤيَةِ؛ فخاصَّةٌ بالبَصريَّة[1].

ولذلكَ فإنَّ مَوْردَها (أي: العَيْن) في سياقِ الآيةِ تابعٌ لقولِه: ﴿يَرَوْنَهُم﴾، أي: إنَّ ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لـ ﴿يَرَوْنَهُم﴾؛ إنْ كانتِ الرُّؤيةُ بَصَريَّة، أو مصدرٌ تشبيهيٌّ؛ إنْ كانتْ قلبيَّة[2]، أي: رؤيةٌ ظاهرةٌ مَكشوفةٌ جاريةٌ مجْرَى رُؤيةِ العَيْن[3].

والدَّليلُ على أنَّها رؤيةٌ بَصَريَّة أمْرانِ اثْنان:

الأوَّلُ: قولُه تعالى: ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾.

والثَّاني: أنَّ رُؤيةَ القلبِ عِلْم، ومُحَالٌ أنْ يعلم الشَّيء شيئَيْن[4].

تقديمُ لفظِ الجلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾ بتقديمِ الفاعلِ على الفِعْل في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾:

تأييد الله لعباده، مدد ونصر وتمكين

جاءَ هذا التَّقديمُ الجليلُ للاسْمِ العظيمِ الجليلِ ﴿وَٱللَّهُ﴾ على الفعلِ ﴿يُؤَيِّدُ﴾؛ ليقصُرَ التَّأييدَ، ويَحصُرَ النَّصرَ باللهِ وحدَه دُون سواه، ولبيانِ أنَّ مكانةَ المُؤيَّدِ: وهم المسلمونَ بقيادةِ الرَّسول ﷺ، وعظمةَ المؤيَّدِ به: وهو فعلُ التَّأييدِ، ونتيجتُه: وهي النَّصر؛ من عظمةِ المؤيِّدِ: وهو اللهُ لا أحدَ سواه.

دَلالة المضارع في قوله ﴿يُؤَيِّدُ﴾:

تأييد الله مُتجدِّدٌ للمؤمنين، ولن يتخلَّى الله عن عباده الصَّادقين

صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ تشير إلى استمرار تأييد اللهِ تعالى وتجدُّد نصره لأهل الإيمان حين يستوفون شروط النَّصر الَّتي حدَّدها سبحانه وفق حكمته البالغة ومشيئته المطلقة وعلمه الأزليِّ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/178.
(2) أبو السُّعود، الإرشاد: 1/449.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/415.
(4) العكبري، الإملاء: 1/127.

تأكيد جملة التَّذييل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾:

أولو الأبصار والنّهى، يعتبرون بأحداث التَّاريخ ويتَّعظون بها

جاءت جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ مفصولة عمَّا سبق من حديث في ثوب حكمة ربَّانيَّة صحيحة المضمون، مستقلَّة بمعناها؛ ليَسْهُلَ ضربُ الأمثال بها، وتوظيفُها في المقام الخطابيِّ المناسب، وما أحوج المسلمين أن يعتبروا بآيات القرآن الكريم وأحداث التاريخ وقصص الأوَّلين!

ولهذا الغرض؛ جاءت مؤكَّدَةً بجملة من المؤكِّدات هي: ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة واللَّام المزحلقة، وجاء فيها أيضًا تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم إنَّ ﴿لَعِبْرَةً﴾، وهذه كلُّها وسائل نحويَّة لتوكيد الكلام وتقريره.

اختيار ﴿الْأَبْصَارِ﴾ بدل (الألباب)، من بلاغة الخطاب:

الَّذين يبصرون الأحداث، يكونون أكثر اتِّعاظًا بها

لفظ ﴿الْأَبْصَارِ﴾ جمع: (بَصَر) بمعنى: آلة الإبصار، واختيار لفظ ﴿الْأَبْصَارِ﴾ دون الألفاظ المُقاربة له، مثل: الألباب أو العقول أو النُّهى، المرادُ منه: أنَّ أولي الأبصار الَّذين يرون هذه الأحداث بأعيُنهم هم الأكثر اتِّعاظًا والأكثر اعتبارًا بها، وليس الخبرُ كالمشاهدة.

وفي الوقت نفسه، يتناسبُ لفظ ﴿الْأَبْصَارِ﴾ مع فعل الرُّؤية في الآية نفسها ﴿يَرَوْنَهُم﴾، ويُشيرُ من ناحية ثالثة إلى البصيرة الَّتي هي رؤية الأحداث والأشياء بنور القلب.

دَلالةُ اسْتعمالِ لفظ ﴿ءَايَةٌ﴾ في المَطْلَعِ ولفظ ﴿لَعِبْرَةً﴾ في الخاتمة:

ما بين الآية والعبرة، تتعمّق الفكرة

الآيةُ مُقدِّمةٌ لحصولِ النَّتيجة، أو سَبَبٌ وعِلَّةٌ لحدوثِ المُسبَّب، والعِبْرةُ بالمآلاتِ والنَّتائج، وهي الفائدةُ المَرْجُوَّة والمُعوَّلُ عليها، وإلَّا فإنَّ قطعَ الأسبابِ عن مُسبَّباتِها والمقدِّماتِ عن نتائجِها يَتورَّعُ منه العقلاءُ من البَشر، فكيف بكلامِ ربِّ البشَرِ الَّذي لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يَدَيْه ولا مِنْ خَلْفِه ؟

ولذلكَ أيضًا جاءتْ كلمةُ ﴿لَعِبْرَةً﴾ نكرةً للتَّعظيم، أي: عبرةٌ عظيمةٌ ومَوْعظةٌ جَسيمَة. وما بين الآيةِ العظيمةِ والعِبْرةِ العظيمةِ جاءَ العَرْضُ القرآنيُّ البيانيُّ الأخَّاذُ لذلكَ الحَدَثِ العظيم، والفَيْصَلِ الثَّمين، بإيجازٍ في العبارةِ ودِقَّةٍ في المَهارة، تَعجزُ عنه بلاغةُ البُلغاءِ وفَصاحةُ الفُصَحاء، وكيف لا، وهو كلامُ اللهِ الَّذي لا يَعلُوه كلام، ولا يَدْنو منه أيُّ مقام؟

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفئة، والفريق، والطائفة، والفوج، والزمرة:

حفلت اللُّغة العربيَّة بجملة من الألفاظ الدَّالَّة على المجموعات البشريَّة، مثل: الزُّمرة والفوج والطَّائفة والفريق والفئة، ومن المقرَّر في فقه اللُّغة العربيَّة أنَّه لا ترادفَ حقيقيًّا بين الكلمات، وإنَّما يوجد بينها تقاربٌ في المعاني والدَّلالات.

من هنا ذكر المُعجميُّون أنَّ الطَّائفة من النَّاس: جماعةٌ منهم، والطَّائفة من الشَّيء القطعةُ منه[1].

والزُّمرة: الجماعة النَّادرة المتخصِّصة في عمل دقيق ونادر، قال الخليل بن أحمد: "والزُّمرةُ فوجٌ من النَّاس، ويقال: جماعةٌ في تفرقة، بعض على أثر بعض"[2]، والحزب: جماعةٌ فيها غلظةٌ وشدَّةٌ تؤمن بهدف محدَّد تسعى إلى تحقيقه.

والفريق والفِرقةُ: يطلقُ هذا الاسم على الجماعة المتفرِّدة من النَّاس[3]، والفوج: جماعة تُشكَّلُ بسرعة للقيام بعمل مستعجل، والفئة: الجماعةُ المتظاهرةُ الَّتي يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضد".[4]

ممَّا سبق، يتجلَّى أنَّ لفظ ﴿فِئَةٌ﴾ هو أولى الألفاظ وأليقُها بسياق الحرب وملابسات لقاء المتحاربين حيث يفيءُ كلُّ جنديٍّ إلى الفئة الَّتي تحميه، ويجد نُصرتها ومؤازرتها.

المِثْل والضِّعْف:

المِثْلُ: هو عبارةٌ عنِ المُشابهَةِ لغيرِه في معنًى من المعاني، أيِّ معنًى كان، وهو أعمُّ الألفاظِ الموضوعةِ للمُشابَهة، وذلكَ أنَّ النِّدَّ: يُقالُ فيما يُشارِكُ في الجَوْهَر فقط، والشِّبْهُ:

(1) الراغب، المفردات: (طوف).
(2) الخليل، العين: (زمر).
(3) الراغب، المفردات: (فرق).
(4) الراغب، المفردات: (فيأ).

يُقالُ فيما يُشارِكُ في الكيفيَّةِ فقط، والمُساوي: يُقالُ فيما يُشارِكُ في الكمِّيَّةِ فقط، والشَّكْلُ فيما يُشارِكُه في القَدْرِ والمساحةِ فقط، والمِثْلُ: عامٌّ في جميعِ ذلك[1].

والضِّعفُ: من الألفاظِ المُتضايِفَة الَّذي يَقْتضي وجودُ أحدِهما وجودَ الآخر، كالنِّصفِ والزَّوْج، وهو تركُّب قَدْرَيْن مُتساويَيْن، ويختصُّ بالعَدَد، فإذا قيلَ: أَضْعَفْتُ الشَّيءَ وضعَّفتُه، وضاعفتُه: ضَممتُ إليه مِثْلَه فصاعدًا.

والضِّعفُ: اسمٌ كالثِّنْي، فَضِعفُ الشَّيء هو الَّذي يُثَنِّيه، ومتى أُضيفَ إلى عَددٍ؛ اقْتضَى ذلكَ العددَ ومثْلَه، يُقالُ: ضِعْفُ العَشَرَة، وضِعفُ المئة، فذلكَ عشرونَ ومئتانِ بلا خِلاف.

وإذا قيلَ: أَعْطِه ضِعْفي واحد؛ فإنَّ ذلك اقْتضَى الواحدَ ومِثْلَيْه، وذلكَ ثلاثة؛ لأنَّ معناه الواحدُ واللَّذان يُزاوجانِه، وذلكَ ثلاثة، هذا إذا كان الضِّعفُ مُضافًا، فأمَّا إنْ لم يكنْ مُضافًا، كأنْ يُقال: الضِّعفَان؛ فإنَّ ذلك يجري مجرَى الزَّوْجَيْن في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُزاوجُ الآخَر، فَيَقْتضِي ذلكَ اثْنَيْن؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُضاعِفُ الآخر، فلا يَخْرُجانِ عنِ الاثنَيْن بخلافِ ما إذا أُضيفَ الضِّعفانِ إلى واحدٍ فَيُثَلِّثُهما، نحو: ضِعْفي الواحد[2].

الأيد والقُوَّة:

الأيد: القوَّة الشَّديدة، وأيَّد فلان فلانًا: قوَّاه وبالغ في مؤازرته ومساندته، والقوَّة: لفظ عامٌّ يُستعملُ لمعانٍ متقاربة، قال الرَّاغب: "القوَّة تستعملُ تارة في معنى القُدرة، وتارة للتَّهيُّؤ الموجود في الشَّيء...ويستعمل في البدن تارة، وفي القلب أخرى، وفي المُعاوِن من خارج تارة، وفي القدرة الإلهيَّة تارة"[3].

من المعنى الكلِّيِّ للمادَّتين اللُّغويَّتين يتبيَّن: أنَّ لفظ (القوّة) عامٌّ يُستعمَل في مواضع مختلفة، والسِّياق هو الَّذي يُحدِّد معناه الدَّقيق، أمَّا لفظ (الأيْد)؛ فَيُرادُ به القوَّة الشَّديدة، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذَّاريات: 47]، وأثنى سبحانه على عبده داود بأنَّه كان ذا أيد شديد: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: 17]، وذكر أهل التَّفسير أنَّ الله تعالى وهَبَهُ قدرةً عجيبة على الصَّوم واستطاعة بدنيَّة غير معهودة حتَّى إنَّه ألان له الحديد.

(1) الرَّاغب، المفردات: (مثل)
(2) الرَّاغب، المفردات: (ضعف)
(3) الراغب، المفردات: (قوي).

وقد جاء لفظ ﴿يُؤَيِّدُ﴾ في الآية الكريمة في مكانه المناسب اللَّائق به مُفيدًا أنَّ الله تبارك وتعالى يُؤيِّدُ، ويُقوِّي فئة أهل الإيمان المخلصة الصَّادقة، ويبعث فيها همَّة عالية مُتوثِّبة ونشاطًا منقطع النَّظير وتَحَفُّزًا للتَّغلُّب على أهل الكفر، بينما لفظ (النَّصر) فإنَّه يفيد معنى الانتصار والظَّفر بشكلٍ عامٍّ، والله قادرٌ سبحانه أن ينصر عباده كيف يشاء ومتى يشاء وبما يشاء، ولكنَّ المراد في هذا السِّياق حِرْصُ البيان القرآنيِّ على تصوير تقوية جانب المؤمنين، أي: إنَّ النَّصر جاءهم بعدما قوَّاهم الله تعالى، وأيَّدهم، وجعلهم الطَّائفة المنصورة القويَّة المُهابة الجانب.

البصائر والأَبْصار:

البَصائرُ: جَمْعُ بصيرة، وهي تَكامُلُ العلمِ والمعرفةِ بالشَّيء[1].والبصيرةُ: البُرْهانُ، فهي تَدُلُّ على وُضوحِ الشَّيء[2].

الأَبْصارُ: جَمْعُ بَصَر، وهو اسْمٌ للرُّؤيةِ بالعَيْن الَّتي هي آلةُ البَصَر، وهي الحَدَقَة، ولهذا يُقالُ: إحْدَى عَيْنَيْهِ عَمْياء، ولا يُقالُ: أحدُ بَصَرَيْه أَعْمَى، وربَّما يَجْري البَصَرُ على العَيْن الصَّحيحة مَجازًا، ولا يَجْري على العَيْن العَمْياء، فيُدَلِّل هذا على أنَّه اسْمٌ للرُّؤيةِ على ما تقدَّم، ويُسمَّى العِلْمُ بالشَّيءِ إذا كانَ جَليًّا بَصَرًا، يُقالُ: لكَ فيه بَصَر، يُرادُ أنَّكَ تعلمُه كما يَراهُ غيرُك[3].

ويُقالُ: فلانٌ بَصير، ويُرادُ به مَعْنيان:

الأوَّلُ: وهو المُختَصُّ بأنَّه يُدرِكُ المُبصَرَ؛ إذا وُجِد، وأَصْلُه البَصَرُ: وهو صِحَّةُ الرُّؤية، ويُؤخَذُ منه صِفةُ مُبْصِرٍ بمعنى: رَأْي.

والثَّاني: البصيرُ بمعنَى: العالم، يُقال منه: هو بَصيرٌ، وله به بَصَرٌ وبَصيرَة، أي: عِلْم[4]، ويُقالُ: بَصُرْتُ بالشَّيءِ؛ إذا صِرْت به بصيرًا عالِمًا، وأَبْصَرْتُه: إذا رأيته[5].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 102.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/254.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 381.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 102.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/254.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»